

النثر في العصر الجاهلي.

لقد أثارت نشأة النثر وأسبقيته على الشعر اهتمام بعض الدارسين، في القديم والحديث وانقسموا إزاء ذلك، إلى اتجاهين اثنين، اتجاه يقول بقدّم النثر وأفضليته، ويؤرخ للنثر السردى ويحتفي به واتجاه آخر معارض، ينفي نفيا قاطعا وجود النثر الجاهلي، ويلغي كلّ الكتابات التي مثّلته، وهناك اتجاه ثالث توفيقي يقف موقف اعتدال بين الاتجاهين المتعارضين، وقد أفاض محمد القاضي في هذا الاختلاف حين قدّم دراسته الفريدة عن الخبر في السرد العربي.

أ/ 1 لا وجود لنثر جاهلي:

تتعلق نشأة النثر بالسرد، وكلّ استبعاد للسرد هو استبعاد للنثر ومروياته، وقد أدركنا أنّ التدوين لم يحتف بالسرد، ولم يهتم بمحكياته المختلفة، وانشغل لا اعتبارات كثيرة بالشعر، ولم يقف النقد بعيدا عن الرواية وتحيز تدوينها لما هو راهن ومكرس أدبيا وسياسيا، وإغفالها لموروث سردي عظيم، وبلغ تعسف النقد إلى حد أنكر فيه بعض النقاد وجود نثر جاهلي، واعتبروا الشعر أقدم الفنون الكلامية، ومن هؤلاء طه حسين في كتابه "في الشعر الجاهلي"، والذي يرى فيه أنّ الشعر أسبق من النثر عند العرب، كما هو عند اليونانيين، فلا يمكن أن يسبق النثر الشعر ولا يمكن أن يكونا متزامنين: "وأنت تستطيع أن تلمس الأمر عند اليونان والرومان والأمم الغربية، فسترى أنّ هذه الأمم كلّها تغنّت ونظمت الشعر قبل أن تعرف النثر بأزمان طوال..."(1).

يُنكر طه حسين في حديث الأربعاء أن يكون للعرب فن درامي قصصي، فالقصص جاء بعد الشعر بكثير، جاء ليخدمه، وليزيد من إثارته وتشويقه: "ثم كثر هذا الشعر واحتاج الناس إلى تفسيره، ووصل بعضه ببعض، فنشأت لإرضاء هذه الحاجة، هذه الأقاويص الغرامية التي يمتلئ بها كتاب الأغاني وغيره من كتب الأدب...، وقد قدمنا أن هذا الشعر ظاهرة طبيعية في البلاد العربية، والأشبه هو ما ذهبنا إليه من نشأة الغزل بقسميه أولا، ثم نشأة القصص حول هذا الغزل ثانيا"(2).

يعود طه حسين عن رأيه في نشأة النثر عموما، والنثر السردى على وجه خاص، وذلك في كتابه "من حديث الشعر والنثر" حين يقول: "والواقع أننا لا نستطيع بحال من الأحوال - مهما نحصر على أن نكون من أنصار العصر الجاهلي وعشاقه-، أن نطمئن إلى أن هذا

- طه حسين: في الشعر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، مصر (د ت)، ص 326.

- طه حسين : حديث الأربعاء، ج1، دار المعارف، القاهرة، مصر (د ت)، ص 191.

العصر كان له نثر فني، والذي ليس فيه شك أن أقدم نص يمكن أن نطمئن إليه هو القرآن، ولكنكم تعلمون أن القرآن ليس نثراً، كما أنه ليس شعراً، إنّما هو قرآن"(3).

ويكتفي الدكتور بذكر نوع خاص واحد من النثر وهو الخطابة، ويبين كيف ضاع النثر الجاهلي جلّه فيقول: "وإذن فالعصر الجاهلي لم يكن له نثر بالمعنى الذي حددته، ومع ذلك فقد كان له نثر خاص، لم يصل إلينا لضعف الذاكرة، وخلوه من الوزن، هذا النثر هو الخطابة وليس من شك – إذا فهمنا حياة العرب الجاهلية-أن ما كان يقع بينها من خصومات كان يحتاج إلى كلام غير منظوم ..."(4).

ويعود طه حسين مدافعاً عن النثر الجاهلي، الذي حصره في الخطابة، ويرد على من يعتبر هذا النثر متأثراً بالفلسفة اليونانية، والحضارة الفارسية المتاخمة لجزيرة العرب فيقول متسائلاً: "وأحبُّ أن أسأل أليس يوجد نثر عربي غير الخطابة لم يتأثر بالفارسية أو اليونانية؟ فإذا استطعنا أن نظفر بهذا النثر، كان من السهل أن نرى الفرق بينه وبين النثر الذي تأثر بالثقافات الأجنبية، ووجود هذا النثر ليس بالشيء الصعب، ويكفي أن نقرأ النقائض، فسنجد فيه إشارة إلى أيام العرب، التي كان العرب يقولون إنها وقعت بسبب داحس والغبراء، وفي حرب البسوس، وفي يوم الكلاب، وما كان بين عامر وتميم، وأيام الفجار وغيرها، كل هذه القصص كانت تروى وتحكى في مدينتي البصرة والكوفة، عندما استقر العرب في هذين المصريين، وكان الذين يتحدثون بها إلى الناس هم الأعراب..."(5).

النثر قديم متأصل في الذاكرة العربية، والنثر السردى عربي خالص ابتدعته مخيلة العرب، ولا دخل للأمم الأخرى فيه، ومن السهل على طه حسين استدعاء هذا الموروث، فهو موجود في فن النقائض الأموية، التي قامت بإحياء هذا التراث السردى وابتعثته من جديد، ممثلاً في أيام العرب، هذا الفن الذي كانت مدينتا البصرة والكوفة مسرحاً له، يتنافس الشعراء في روايته وسرده.

لا يمكننا أن نطمأن لرأي طه حسين، فسرعان ما نجد ما يناقضه ويلغيه، فقد أعلن منذ البداية أن ما تبقى من نثر جاهلي، منتحل أدركه تزيّد الرواة الوضّاعين: "كلّ ما يضاف إلى اليمينين من نثر مرسل أو مسجوع أو خطابة في الجاهلية مرفوض لا قيمة له ولا حظّ له، نُحل بعد الإسلام نحلاً...، أمّا عرب الشمال فلا بدّ من أن نقف من نثرهم موقفنا من شعرهم؛

- طه حسين: من حديث الشعر والنثر، دار المعارف، ط10 القاهرة، مصر (د ت) ص25، 24. 3

-المرجع نفسه:ص25. 4

- طه حسين : مرجع سابق ص31. 5

نرفضه ولا نكاد نقبل منه شيئاً، فلم يبق إلاّ المضربون.. نحن مضطرون إلى أن نرفض هذا النثر الكثير الذي يضاف إلى المضربين قبل الإسلام..."(6).

يعد رأي شوقي ضيف من رأي طه حسين الأخير، فهو ينكر وجود نثر فني يخضع لشروط الكتابة الأدبية، وأنّ ما وجد إنّما هو أحاديث السُّمّار وقصص الكُهان والرُّهبان، التي تجمع بين جمال العبارة المسجوعة، وروعة القصّ الديني بترهيبه وترغيه، فلا دليل على وجود نثر جاهلي مُمثلاً في الرسائل الأدبية، وإنّما هناك أحاديث وأخبار القصّاصين فقط: " وإذا كنّا نفتقد الأدلة المادية على وجود رسائل أدبية في العصر الجاهلي فمن المحقّق أنّه وُجدت عندهم ألوان مختلفة من القصص والأمثال والخطابة وسجع الكُهان، ومن المؤكّد أنّهم كانوا يشغفون بالقصص شغفا شديداً، وساعدتهم على ذلك أوقات فراغهم الواسعة في الصحراء، فكانوا حين يرخي الليل سدوله يجتمعون للسمر، وما يبدأ أحدهم في ضرب من مضارب خيامهم بقوله كان وكان، حتى يرهف الجميع أسماعهم إليه، وقد يشترك بعضهم معه في الحديث، وشباب الحي وشيوخه ونساؤه وفتياته المخدرات تحت الأخبية، كلّ هؤلاء يتابعون الحديث في شوق ولهفة..."(7).

تقتصر الكتابة الأدبية الجاهلية إذن على الخطابة وسجع الكُهان، فنشأتها دينية، طوّرها الكُهان والفُصّاص والوعّاظ بعد ذلك، والسجع قالبها الفني، الذي تتحلّى به دائماً: " السجع صيغة قولية شفوية شبه موزونة، استأثرت بمعظم ضروب التعبير النثري في العصر الجاهلي، واعتمدها القرآن بوصفها أكثر صيغ الإيقاع تواتراً فيه، وهيمنتها في الخطاب القرآني، دليل على إطرائها في ضروب التعبير النثري الأخرى...."(8).

لقد حُفظت أسجاع الكُهان، وضاعت المرويات الأخرى، التي كانت فاكهة المجالس، وأنس العامة من الناس، يسرّون بها همومهم وينسون بها ضنك العيش وقساوة الصحراء.

إنّ المواقف التي تُلغي وجود نثر سردي جاهلي قليلة، ضعيفة الحجة، تتضاءل وتقوّض شواهداها، عندما تقف في مواجهة الرصيد السردى الذي ترصده كتب القرن الرابع الهجري، والاهتمام الذي بذلته لتدوين المحكي، مثلما نجده عند ابن النديم المتوفي سنة (380هـ) في كتابه الفهرست، وصاحب الأغاني المتوفي سنة (356هـ)، وسيظهر أنصار النثر الجاهلي أكثر عدداً وأبلغ شهادة من غيرهم.

2/أ للعرب نثر قديم:

طه حسين: في الشعر الجاهلي ص 326 . 6 -

- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، ج 1 - العصر الجاهلي - دار المعارف، ط 8، القاهرة، مصر (دت)، ص 399 . 7 -

- عبد الله إبراهيم: موسوعة السرد العربي، ج 1، ص 71 . 8 -

يرى أصحاب هذا الموقف أنّ إنكار النثر عند عرب الجاهلية مُجافٍ للطبع البشري ولمعطيات التاريخ، وهم يستندون في ذلك إلى أنّ القصص أمر مألوف عند المجتمعات كلّها، وقد عبّر الجاحظ عن ذلك في إحدى رسائله فقال: " ولأنّ من طبع الإنسان محبة الإخبار والاستخبار، وبهذه الجبلة التي جُبِلَ عليها النَّاسُ، نُقِلَت الأخبار عن الماضين إلى الباقين، عن الغائب إلى الشاهد، وأحبّ النَّاسُ أن يُنْقَلَ عنهم، ونقشوا خواطرهم في الصّخور، واحتالوا لنشر كلامهم بصنوف الحيل..."(9).

إنّ السّرد والقدرة على كتابة المحكي، فطرة إنسانية، لطالما سعى الإنسان إلى تحقيقها بكلّ الوسائل والطرق، والواضح من قول الجاحظ أنها لم تكن سهلة ولا ميسورة فالكتابة النثرية نادرة وشاقة، في بيئة تقوم على المشافهة والاستظهار، ولذلك قلّ هذا النثر وندّ على القدماء.

ولعلّ المعاصرين من الباحثين لم يلتفتوا جيّداً لمسألة النثر وسروده الجاهلية، ولم يستفيضوا في البحث عن نثر الجاهلية، الذي حصرته أغلب الدراسات التاريخية والأدبية في الخطابة وسجع الكُهان، وفي الوصايا والأمثال، وبعض القصص والملاحم الشعبية، ويُعدّ كتاب النثر الفنّي في القرن الرابع، لزكي مبارك من أوائل الكتب النقدية الحديثة التي التفتت إلى النثر وفنونه ونقه نقداً منهجياً... (10).

اعتبر صاحب كتاب النثر الفني النثر موجوداً في الجاهلية، ضاع منه الكثير، وطالته يد الانتحال، لكنه كان موجوداً ووافراً أيضاً: " وخلاصة ما أراه أنّه كان للعرب قبل الإسلام نثر فني يتناسب مع صفاء أذهانهم، وسلامة طباعهم، ولكنه ضاع لأسباب أهمها شيوع الأميّة وقلة التدوين، وبُعد ذلك النثر عن الحياة الجديدة التي جاء بها الإسلام ودونها القرآن ، وما نقله الرواة من النصوص لا يكفي لتعيين أساليب النثر في العصر الجاهلي، وبيان الاتجاهات العقلية التي كان يرمي إليها الكاتبون إذ ذاك، وهو على قلّته مما وضع في العصر الأموي، وصدر العصر العباسي لأغراض دينية وسياسية ، وهو لهذا لا يعد مدرسة نثرية، ولا مذهباً اجتماعياً، ولا رأياً عاماً، وإنما يعيّن أذواق واصفيه، ومذاهبهم السياسية واتجاهاتهم الدينية"(11).

وينفي زكي مبارك صحة النثر الجاهلي، فشواهدة منحولة، وضعها الرواة في العصر الإسلامي، والشاهد الوحيد على صحة النثر الجاهلي هو القرآن، فهو الصورة النثرية المماثلة للصور النثرية الجاهلية: " فليعلم القارئ أن لدينا شاهداً من شواهد النثر الجاهلي يصح

- الجاحظ : "رسالة كتمان السر وحفظ اللسان"، رسائل الجاحظ الأدبية ،تقديم وشرح علي أبو لمحم ،دار ومكتبة الهلال ، ط2 بيروت، 9 لبنان ، 1991، ص 90 .

- ينظر: ضياء الكعبي: مرجع سابق ، ص 466.10

- زكي مبارك : النثر الفني في القرن الرابع، ج1، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، جمهورية مصر العربية، 2010، ص 11 37 .

الاعتماد عليه وهو القرآن، لا ينبغي الاندهاش من عدّ القرآن أثرا جاهليا، فإنّه من صور العصر الجاهلي، إذ جاء بلغته وتصوراتهِ وتقاليدهِ وتعابيرهِ، وهو بالرغم مما أجمع عليه المسلمون من تفردهِ بصفات أدبية لم تكن معروفة في ظلّهم عند العرب، يعطينا صورة للنثر الجاهلي، وإن لم يكن الحكم بأن هذه الصورة كانت مماثلة تمام المماثلة للصور النثرية عند غير النبيّ من الكُتّاب والخطباء...."(12).

يعدّ ناصر الدين الأسد من أكبر المدافعين عن النثر الجاهلي، رغم ما عزّ عليه من شواهد، فهو يريد أن يثبت أن العرب عرفوا الكتابة، وليس صحيحا أنهم كانوا كلهم أميين، فثمة نقوش ومنحوتات في شبه الجزيرة العربية تثبت أنّهم عرفوا الكتابة، وكتبوا الخطّ العربي بثلاث قرون قبل الإسلام فيقول: "كان العرب يكتبون في جاهليتهم ثلاثة قرون على أقل تقدير بهذا الخطّ، الذي عرفه بعد ذلك المسلمون، وقد أصبحت معرفة الجاهلية بالكتابة، معرفة قديمة أمرا يقينيا، يقرّره البحث العلمي القائم على الدليل المادي المحسوس، وكل حديث غير هذا لا يستند، إلا إلى الحدس والافتراض"(13).

ولكن هناك فرق كبير بين الكتابة والتدوين، فالمعرفة بالكتابة وشروطها لا تعني التدوين، الذي يتطلب جهدا منظما وممنهجا في الجمع والتقييد، فإن كان التدوين موجودا فعلا، عند الجاهليين فهو عابر وعارض: "الذي نراه أنّ كلّ قبيلة من القبائل كانت تجمع شعر شعرائها، وحكم حكمائها، وأقوال خطبائها، وأخبار مفاخرها، ومآثرها وأنسابها في كتاب وقد احتفظ العرب بهذه التسمية لكتب القبائل بعد ذلك في العصور الإسلامية لتدل على هذا نفسه الذي قدمناه..."(14).

إنّ المشكلة على ما يبدو ليست في وجود الكتابة وانتشارها، بل في قلة وسائل الكتابة وتعذرها، وطغيان الشفوية على الحياة الأدبية والفكرية والدينية، فالتدوين جاء متأخرا بقرون حتى الإسلام في بدايته لم يشجع على الكتابة: "فالرسالة الإسلامية في جوهرها رسالة شفوية وكلام الله هو أكثر تجليات الشفاهية في التاريخ، كلام الله متن شفاهي حمله جبريل وأوحى به للنبي محمد، وبالتدوين استقرّ في المصحف، لعبت الكتابة دور الحافظ للكلام الشفوي، والفكرة ذاتها للحديث النبوي، وأصبح الإسناد دعما لمشروعية المشافهة، فيؤكد على هيمنة النسق الشفوي في التعبير والتفكير، لا يمكن القول إن الإسلام جاء لنقض المكتوب، لأنّه الممثل الأكبر للحالة الشفوية"(15).

12. - مرجع سابق، ص 41.

13. - ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار الجيل، ط7، بيروت، لبنان 1988، ص 33.

14. - المرجع نفسه ص 164.

15. - عبد الله إبراهيم: المحاورات السردية ص 13.

إن العلاقة بين النثر والسرود وثيقة، وإنكار الأول يعني بالضرورة نفي الثاني وإلغاءه، فالنثر حامل للسرود الجاهلية المختلفة التي سبقت الشعر بزمان طويل غير محدد، هذه السرود التي عمل التدوين على تنقيتها من عقائد الجاهليين، خدمة للدين الجديد واحتراما لقدسيته، فالنثر الضائع منا هو ما سكت الرواة عن ذكره، فالخوض في مسألة السرود القديم يقودنا دائما، للحديث عن النثر الجاهلي القليل الذي وصل إلينا، وأقدم لون نثري وصل إلينا هو السجع، وسجع الكُهان، فما موقف الإسلام من النثر الجاهلي وأشكاله المختلفة؟ هل هو موقف الإقصاء والعداء؟ أم موقف السلم والمهادنة. وبعبارة أدق موقف القرآن من النثر الجاهلي.

ب - القرآن والنثر الجاهلي:

بحث الرواة وأصحاب الأخبار في أصول الشعر العربي، وأفاضوا القول في أولياته، ولكنهم لم يلتفتوا إلى النثر، لم يولوه الاهتمام نفسه، فابن رشيق في رأيه الذي ذكرنا، يكاد يكون الوحيد.

فقد أثبت أولية النثر على الشعر وأفضليته عليه، لكنه لم يضع لتلك البداية حداً، ولم يذكر كيف تحول العرب من النثر إلى الشعر؟.

فالأكد أن النقلة لم تكن سريعة ولا سهلة ميسورة، والشعراء لم يهتدوا إلى الشعر بالفطرة والبدئية فقط: "يصعب القول إن تلك الأعاريض ظهرت فجأة، بوصفها لحظة انتقالية حاسمة في تاريخ القول الأدبي، إذ لا بد أن تكون قد تطورت عن نظم إيقاعية أقل انضباطا وصقلت بالممارسة والتجريب، إلى أن اتسقت فيما يعرف بالأوزان الشعرية المعروفة، فإذا عرضنا الأدب العربي لوجهة النظر هذه وعالجنا الأمر بروية تاريخية، فالصيغة الأسلوبية التي تطورت عنها الأعاريض لا يمكن إلا أن تكون السجع..."¹⁶.

السجع إذن هو أقدم الفنون النثرية العربية، يعد الشعر نهاية طبيعية لتطوره، وقد استبد هذا السجع بالتعبير الأدبي الجاهلي وسيطر عليه لفترات طويلة، وكان بحر الرجز الصورة العروضية البسيطة التي تطورت عن السجع الجاهلي، فقد ألف الجاهليون السجع وعرفوه وتفننوا في أساليبه: "أعجب العرب بالسجع حتى استعملوه في منظوم كلامهم، وصار ذلك الجنس من الكلام منظوماً في منظوم وسجعا في سجع." (17).

يبحث عبد الله إبراهيم عن علاقة الشعر العربي بسجع الجاهليين، ليخلص إلى أن أصل الشعر في أولياته كان سجع الكُهان، لما في السجع من توازن صوتي، وانسجام في الفواصل

- عبد الله إبراهيم، موسوعة السرد العربي، ج 1 ص 1671

- أبو هلال العسكري: الصنائع (الكتابة والشعر)، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، 17 سوريا 1952، ص ص 264، 265.

ونغم في تناسقها وتشابه نهاياتها، فوجود السجع واقتراب الشاعر الراجز من أسلوبه دليل واضح على أسبقية النثر على الشعر: "ولكن أين يمضي بنا كل ذلك؟ إنه يقودنا إلى فكرتنا الرئيسية حول قدم النثر، الشعر تطوّر عن صيغ سجعية، تطوّرت هي الأخرى عن الكلام العادي وذلك يخالف القول الشائع بين الدارسين حول أولية الشعر، وهو الرأي الذي أشاعه في أوساط الدارسين العرب المستشرق "فالتير"، وجاراه طه حسين..."(18).

يعد السّجع من طبيعة البلاغة الجاهلية، وهو عند المستشرقين وتلامذتهم من أمثال طه حسين وأحمد أمين وزكي مبارك النثر الفني الوحيد في العصر الجاهلي، الذي يمكن لنا أن ننق به ونطمئن إليه، ويذهب عبد الله إبراهيم المذهب نفسه، فهو يرى الشبه واضحا بين القرآن ونثر الجاهليين، فرغم أن الإسلام جبّ نثر الكهان والمتعبدین به والمتنبئين إلا أنّ التماثل ظلّ موجودا، فالأسلوب واحد، والصيغة البيانية والصوتية ذاتها تتكرر: "ولكن إذا نُظر للأمر من ناحية واقعية فالتماثل قائم بينهما، وهذا يكشف أن جوهر الرسالة الإسلامية والأسلوب الذي جاءت فيه، لم يكن يتعارض مع نثر الكُهان من ناحية المحتوى والصيغة، فالموضوعات التي كانت تتواتر فيه هي إجمالا أخلاقية وعظيمة تتخللها دروب من التأويلات الغامضة، أما أساليبه فيغلب عليها الأسجاع التي تطابق الصيغ السجعية في النصوص الدينية، ويُحتمل بأن أصل التعارض كان قائما في الوظائف التي يقوم بها كلّ من النبيّ والمُتنبّي أي الخلاف بين وظيفة الرسول ووظيفة الكاهن..."(19).

لا فرق على ما يبدو عند ناقدنا بين كلام الوحي وكلام البشر، مادامت الصيغة الصوتية واللغوية واحدة، ومادام المغزى إصلاحى تربوي تعليمي إنّه اختلاف في الوظيفة والدور، لا في الهدف والمرجع ! والحقيقة التي يريد الناقد إغفالها أن القرآن ليس نثرا جاهليا ولا كنثر الجاهليين رغم التماثل الصوتي واللغوي بينهما، فهو فريد في بابه، معجز في ألفاظه ومعانيه: "فهو ليس شعرا ولا نثرا ولكنّه كتابُ أحكمت آياته ثم فُصِّلَتْ من لدن حكيم خبير، فلنستطيع أن نقول إنّه نثر، كما نصّ هو على أنّه ليس شعرا، كان وحيدا في بابه، لم يكن قبله، ولم يكن بعده مثله، ولم يحاول أحد أن يأتي مثله، وتحدى النَّاس أن يُحاكوه، وأنذرهم أن لن يجدوا إلى ذلك سبيلا..."(20).

يفرد عبد الله إبراهيم فصلا كاملا يتحدث فيه عن السجع الجاهلي، باعتباره النثر القديم الذي عرفه العرب في جزيرتهم، وأبدعوا فيه، وحمل مروياتهم وسرودهم الدينية المختلفة، فكثير من الكُهان كانوا قصاصين يحترفون السرد، وهم ليسوا جاهليين بالدين، إنّما أحبارا

- عبد الله إبراهيم: مرجع نفسه ص 91. 18.

- عبد الله إبراهيم: مرجع نفسه ص 91. 19.

- طه حسين: من حديث الشعر والنثر ص 25. 20.

وعلماء، يُقَصِّون أخبار الأمم السابقة، يُذَكِّرون، يُبَشِّرُونَ ويُنذرون، فقد جمعوا بين حُجَّة الدين ومُتعة السُّرْد وغوايته، ولم تكن أخبارهم بعيدة، عما جاء القرآن به من قصص الأولين من الأمم والأنبياء والرسُل، وقد رسخوا أسلوبهم في الكتابة والخطابة، إلى درجة أنَّ القرآن لم يتجاوز طريقتهم في الكتابة، فجاءت آياته مسجوعة، ولما كانت الكهانة وأدبها مريبين، نفى الله عز وجل عن نبيه أن يكون كاهنا لمن أرادوا أن يلفقوا هذه التهمة فقال: ﴿وَلَا يَقُولِ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ وقال أيضا: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ﴾ وقال عزَّ من قائل: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ وَلَا يَقُولِ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾

ويأتي موقف النبي (صلى الله عليه وسلم)، ليَقْصِي السَّجْعَ الجاهلي كُلَّهُ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: " اقتتل امرأتان من هذيل، فرمت إحداهما الأخرى بحجر، فقتلتها وما في بطنها، فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقضى رسول أن دية جنيها غُرَّة: عبد أو وليدة، وقضى بدية المرأة على عاقلتها... فقال حمل بن النابغة الهذلي: يا رسول الله: كيف أُغْرِم من لا شرب ولا نطق ولا استهل، فمثل ذلك يُطَل، فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما هذا من إخوان الكُهَّان، من أجل سجعه الذي سجع" (21).

اهتم العرب بالسجع وبرع فيه كُهَّانهم ورُهبانهم وأخبارهم، وكان للكُهَّان مكانة رفيعة في المجتمع الجاهلي، فقد نسجت حولهم الأساطير والخرافات فشُق بن الصعب كان شق إنسان أو شطره، فله عين واحدة ويد واحدة، ورجل واحدة، وأن سطيح بن ربيعة الذئبي، لم يكن فيه عظم سوى جمجمته، وأن وجهه كان في صدره، ولم يكن له عنق، وربما كان أحذب، ومن كهانهم في أواخر العصر الجاهلي سواد بن قارب الدوسي، وقد أدرك الإسلام ودخل فيه، ومنه المأمور الحارثي، كاهن بني الحارث بن كعب وخنافر الحميري...، وأكهنهم عزي تسليمه، يقول الجاحظ: "أكهن العرب وأسجعهم سلمة بن أبي حيّة وهو الذي يقال له عزّي سلمة ومن قوله: "والأرض والسماء، والعقاب والصعقاء، واقعة ببقعاء، لقد نقر المجذُ بني العُشراء للمجد والسَّناء" (22).

ويضيف شوقي ضيف: "ونجد بجانب هؤلاء الكُهَّان جماعة من الكاهنات، وربما كنَّ في الأصل من النساء اللَّائِي، يهبن أنفسهن للآلهة ومعابدها، ومن أشهرهن الشعثاء، وكاهنة ذي الحكمة، والكاهنة السعدية، والزرقاء بنت زهير والغيطلة القرشية، وزبراء كاهنة بني رثام ويروى أنها أنذرتهم غارة عليهم فقالت: "واللّٰوَح الخافق، واللّٰلِيل الفاسق، والصّيَّاح الشّارق، والنّجم الطّارق، والمُزن الوّارق، إنّ شجر الوادي ليأدو ختلا، ويحرق أنيابا غُضلا، وإن صخر العواد، لينذر تكلا، ولا تجدون عند معلا" (23).

- الجاحظ: مصدر سابق ص 287.21

الجاحظ: مصدر سابق ص 290.22

شوقي ضيف: العصر الجاهلي ص 421.23

يقلّ بعض الدارسين من قيمة هذه الأسجاع الجاهلية، التي كان الكهّان يرددونها، وينسجون عليها سرودهم، ودوّنوا بها أخبار الأوّلين، وما كان فيها من أعاجيب، فالأمر لم يكن سوى دجلا وتهريجا: "وسجع الكهّان الذي عُرف في الجاهلية ضرب من الشعوذة اللفظية كما قلنا من قبل، وهو ليس فنا وليس أدبا، وإنّما هو عبث يعتمد على الجرس اللفظي، وأحسب أن هذا هو السرّ فيما نقلته لنا كتب السيرة والأخبار، من أن الرسول صلى الله عليه وسلم- عفا عنه، وأن صحابته امتنعوا عنه بل رفضوه رفضا قاطعا"(24).

يرى عبد الله إبراهيم أنّ رفض الأسجاع الجاهلية لم يكن رفضا فنيّا خالصا، واستبعادها لم يكن أبدا لا اعتراض عليها كشكل وأداة، ولو كان الأمر كذلك لما اختار القرآن السجع أسلوبا نثريا، يخاطب به النّاس، فالأكيد أن هذا الاستبعاد كان هدفه واضحا، فالسجع كان حمّالا لمعتقدات الجاهليين ومروياتهم التي تعارض الدّين الجديد، وأصحابه لم يكونوا مجرد أدباء يكتبون الأسجاع ويتقننون في قولها، فهم رجال دين، عارفون بأموره كلّها، فالسجع مرتبط بالكهانة، وبالديانات التي سبقت الإسلام، لذلك فهو مذموم، لكنّه سرعان ما يسترجع مكانته ويبسط سيطرته على فنون الكتابة والإنشاء، فقد أعادت له البلاغة العربية بدأ من القرن الرابع الهجري رونقه وبهاءه، فهذا أبو هلال العسكري يقدمه على فنون البديع كلّها، حين يقول: " لا يُحسن منثور الكلام ، ولا يحلو حتى يكون مزدوجا، ولا تكاد تجد بليغ كلام لا يخلو من الازدواج، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن، لأنّه في نظمه خارج عن كلام الخلق، وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل في أوساط الآيات، فضلا عما تزوج في الفواصل منه"(25).

ويأتي بنماذج من القرآن الكريم لهذا التزاوج: "وأما ما زوج بينه بالفواصل فهو كثير مثل قول تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ وقوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾، ويورد كلام النبي وكرهه للكهّان، ويعلق على ذلك أن النبي لم يكره السجع لكونه سجعا، وأنه استعمله في كلامه ويضيف العسكري في بيان أخير يؤكد فيه السجع وسبب تفضيله فيقول: "إذا سلم (أي سجع) من التكلّف وبرئ من التعسّف، لم يكن في جميع صنوف الكلام أحسن منه"(26).

لم يكن التعارض بين القرآن والسجع في لغته وأسلوبه، بل كان التعارض بين رسالة النبي ورسالة الكاهن، فشتان بين النبي المدعوم بالوحي الصادق، وبين المتنبيّ، المدعوم بالدجل والشعوذة والخرافات، فقد تراجع أدب الكهّان بنثره المسجوع، وسروده الدينية، التي كانت تحمل كثير أمن عقائد الأوّلين: "توارت مرويات الكهّان وراء نسيان مُتعمّد خلف السياج الدوغمائي للسلطة الدينية، التي لا تُقرّ بالتنوع والخلاف،- وإنّما بالبُعد اللاهوتي للنصوص،

فاروق خورشيد : الرواية العربية -عصر التجميع - دار الشروق ، ط2، القاهرة ، مصر 1975. ص 61.24

- أبو هلال العسكري : مصدر سابق ص 260.25

- أبو هلال العسكري: المصدر نفسه ص 261.26

وطُمت هذه السياسات الشمولية المصادر المشتركة، والأصول المتشابهة لكل المرويات الإخبارية، كقصص الأنبياء والإسرائيليات فأوبد العرب..."(27).

لقد تمّ إقصاء سجع الكُهان وأدبهم، وأُستبعدوا من دائرة النثر والسرود معاً، ولكنّ هذا الإقصاء لم يفضّ بسرود هؤلاء إلى الموت، ولم يحكم على مروياتهم بالفناء، فقد بُعثت أو ابدُ العرب وملاحمهم، وأقاصيص الكهنة وأساليبهم المسجوعة من جديد: "ولا شكّ أنّ سجع الكُهان كان معروفاً في الجاهلية، وعند منبثق الإسلام، وقد وعته صدور العرب يومئذ، ثم أهملوه ولكنّهم لم ينسوا أسلوبه، فلما كانت الدولة الأموية أو العباسية حملت الحماسة بعضهم على إنطاق الكُهان بأقوال هي من قبيل الدعاية الدينية أو الحزبية، كبعض الأسجاع السابقة الذكر وكحديث الكاهن خنافر الحميري..."(28).

عرفت الحياة الأدبية في العصر الجاهلي ألواناً عديدة من فنون النثر الفني، من وصايا وأمثال وخطابة وقصص كثرة تداولها القصاصون ردحا من الزمن، لم يبق منها غير سرود قليلة حفظتها الذاكرة العربية لأجيال، بعد أن أهملها الرواة وأغفلوها لتعارضها مع روح الدين الإسلامي. وتعد الخطابة من أشهر الأشكال النثرية التي برع فيها العرب، واحتقوا بها وتنافسوا فيها، وأبدعوا في أساليبها.

ج- الخطابة والخطباء في العصر الجاهلي:

كانت البيئة العربية خلال العصر الجاهلي المناخ المناسب لظهور هذا الفن النثري، فالمنافرات والمشاحنات بين القبائل كان لها دور كبير في ظهور هذا الفن النثري، إضافة إلى كون الخطابة وسيلة للتواصل والتبليغ بين أسياد القبيلة وعامة الناس، ووسيلة من وسائل التذكير عند الحكماء والكُهان ورجال الدين، لذلك اهتم بها العرب الجاهليون، وتنافسوا فيها، وعقدوا لها المجالس والنوادي، وتفنّنوا في أساليبها، واستغلوا فصاحتهم وبراعتهم في القول، وقد أسعفتهم بديهتهم وفطرتهم وملكتهم البيانية في التفوّق في هذا اللون النثري، وظهر فيهم الخطباء والقصاص والنسابة والوعاظ، ومن خطباء الجاهلية قُسط بن ساعدة الأيادي: "وهو الذي قال فيه النبي - صلى الله عليه وسلم- رأيتُه بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول: أيّها النّاس اجتمعوا واسمعوا، وعُوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكلُّ ما هو آتٍ آتٍ...." وهو القائل في هذه: "آياتٌ مُحكمات، وآباءٌ وأمّهات، وذاهبٌ وآت، ضوء وظلام، وبرٌّ وآثام، ولباسٌ ومركبٌ، ومطعمٌ ومشربٌ، ونجومٌ تمورٌ، وبحورٌ لا تَغورٌ، وسقفٌ مرفوعٌ، ومهادٌ

- عبد الله إبراهيم: السردية العربية، ج1، ص 91. 27.

- أنيس المقدسي: تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان (دت) ص 16. 28.

وموضوع، وليل داج وسماء ذات أبراج، مالي أرى الناس يموتون فلا يرجعون، أَرْضُوا فَأَقَامُوا
، أم حُبِسُوا فَنَامُوا....²⁹

وممن اشتهروا بالخطابة في القبائل عامر بن الظرب في قبيلة عدوان ، وربيعه بن حذار في
أسد وحنظلة بن ضرار في ضبة، وعمر بن كلثوم -صاحب المعلقة الشهيرة -من قبيلة
تغلب، وهاني بن قبيصة في شيبان، وزهير بن جناب في كلب وقُضاعة، وليد بن ربيعة
العامري - صاحب المعلقة - ، وهيزان بن شيخ ، وخوبلد بن عمرو والعشراء بن جابر
الغطفانيان، ومن خطباء غطفان أيضا قيس بن خازجة الذي خطب في حرب داحس والغبراء
يوماً إلى الليل، وهرم بن قطبة الفراري، ومن خطباء تميم أكثم بن صيفي، وضمرة بن ضمرة
" ويروى أنه لما دخل على النعمان بن المنذر ملك الحيرة ازدراه لما رأى منه من قبح ودمامة
خلقة، وقصره وقتله، فقال النعمان: " تسمع بالمُعَيدي لا أن تراه، فقال أبيب اللعن إن الرجال لا
تُكأل بالفُقران، ولا توزن بالميزان، وليست بمسوك يُستقى بها وإنما المرء بأصغريه بقلبه
ولسانه، إن صالَ صالَ بجنان وإن قالَ قالَ ببيان"³⁰

كان لهؤلاء الخطباء أساليبهم في الإلقاء، ومنطقهم في المساجلة والمُحاجة والإقناع،
وقد حفظت لهم الذاكرة العربية كثيراً من خطبهم، حتى كانت الخطابة اللون النثري الأبرز
في هذا العصر، قول شوقي ضيف: " وواضح أنَّ هذه كثرة الخطباء الجاهليين، إن لم يصح
ما أثير عنهم من خطب فإن من المُحَقَّق أنهم خطبوا كثيراً في أقوامهم وقبائلهم، وإلا ما اشتهروا
بالبراعة في هذا اللون من ألوان اللسن والبيان.. وكان قلماً يرتفع نجم سيد من سادتهم إلا
والخطابة صفة من صفاته وسجية من سجايه..."³¹

زاحم الشعر الخطابة، وقُدِّم الشاعر على الخطيب لأسباب عديدة، فقد كان العرب في هذا
العصر بحاجة إلى ما يحفظ مآثرهم وأيامهم ومفاخرهم، فكان الشعر هو الديوان الذي جمع
لهم كل المآثر والمفاخر.

د/ أشكال أخرى من النثر الجاهلي:

هناك أنواع نثرية أخرى اتسمت بقوة البيان وبلاغة القول، وبرع فيها الناثرون وأبناء
العصر الجاهلي من حكماء وكهّان وأسياد قبائل منها: الأمثال التي جمع فيها العربي خلاصة
تجاربه في الحياة، ورؤيته للحياة والكون وشؤون الدنيا، بأسلوب فصيح فيه إيجاز وحكمة
بالغة تصلح أن تكون قانوناً للحياة، ويكون للمثل مورد يمثل القصة التي ارتبط بها المثل

- الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، الطبعة السادسة، ج1، القاهرة 1998 ص ص 308، 309.²⁹

- المصدر نفسه ص171.³⁰

- شوقي ضيف: العصر الجاهلي، دار المعارف، الطبعة الثامنة (د ت) القاهرة ص415.³¹

وصاحبه، ومضرب للمثل، يشابه حال صاحبه حال صاحب المثل الأصلي، فالمورد واحد لا يتغير والمضرب يتغير مع مرّ الزمان فكلّ من ينطلي عليه المثل يصبح مضرباً له.

جمعت أمثال العرب في كتب التراث مثل المزهرة للسيوطي، والأمثال لأبي علي القالي، ومعجم الأمثال للميداني وغيرها ومن الأمثلة العربية قولهم: "رُبَّ عجلةٍ تَهْبُ ريثاً"، "استنوق الجمل"، "أبصر من زرقاء اليمامة"، "أكرم من حاتم" الصيف ضيّعت اللبن"، "أعطِ القوسَ باريها" وغيرها من الأمثال السائرة التي تتسم ببراعة العبارة، وقوة الحجة، وكثيراً ما يأتي المثل منعماً مسجوعاً : فإنّك تُحس جمال الصياغة وأنّ صاحب المثل قد يعتمد إلى ضربٍ من التنعيم الموسيقي للفظه فإذا هو يسجع فيه، إذا هو ينظمه شطراً من بيتٍ، وقد يعتمد إلى ضرب من الأخيلة ليجسم المعنى ويزيده حدّة وقوّة..³²

إضافة إلى المثل هناك فنّ نثري هو الوصايا، الذي برع فيه الحكماء والبلغاء والخطباء رجالاً ونساءً، منهم ذو الأصبع العدواني، وهناك فنون نثرية سردية قصصية، كالنواذر والمُلح جمعت في كتب الأدب كالفهرست لابن النديم وخزانة الأدب للبغدادي وغيرها.